



كان واضحاً في النصف الثاني من سنة 2012 أن النظام السوري لم يعد قادراً على الاستمرار، حيث كان قد سحب قواته من أجزاء كبيرة من سورية، ومركّزها في المدن والساحل منذ إبريل/ نيسان في ذلك العام. وفي الوقت نفسه، حاول اللعب بالمجموعات "الجهادية" التي كانت في السجن، وأطلق أخطرها في ذلك الشهر نفسه. فقد كان واضحاً أن معظم الجيش بات في حالة احتقان، وبدأت حالات الانشقاق تتزايد، وكذلك حالات الفرار. وأيضاً، بعد أشهر قليلة، بات الحرس الجمهوري والفرقة الرابعة في وضع منهك. وذلك كله قبل أن يحدث التحول الجذري في وضع الثورة نحو التسلّح، وقبل أن تظهر المجموعات "الجهادية" التي أطلقها النظام من سجونه، ومن ثم أخذت تُرقد من دول عديدة، منها إيران والعراق وال سعودية وتركيا، وأميركا بالطبع، ثم روسيا. وحيث كان الحراك الشعبي أساس الثورة في معظم مناطق سورية .

دفعت هذه الحالة إلى أن تنشأ نخبة من داخل السلطة، من كبار الضباط والمسؤولين السياسيين، وحتى الأمنيين، طرحت مسألة الانتقال إلى الحل السياسي. كان المعيّر عنها في حينه نائب الرئيس فاروق الشرع، الذي أشار بوضوح في مقابلة مع صحيفة الأخبار اللبنانية (بشكل ما صحفة النظام)، نشرت في 23/12/2012، إلى عبث استمرار الصراع، وإلى عجز الطرفين (النظام والمعارضة) عن حسمه، حيث دخل في دائرة الاستعصاء. وبالتالي طرح الانتقال إلى الحل السياسي .

كتب صاحب هذه السطور ذلك كلّه في حينه، ولكن يتّضح الآن أن هذه الوضعية جعلت بشار الأسد يفكّر في الرحيل. وكان واضحاً حينها أن إيران هي التي "أقنعته" بأن يبقى، وأنها ستدعمه بقواتٍ تمنع سقوطه. ويعرف الآن عضو مجمع مصلحة النظام في إيران، علي آغا محمدی، بأن القائد السابق في الحرس الثوري الإيراني، الجنرال حسين همداني، عندما عاد من سورية، قال إنه لما دخل سورية كان بشار الأسد قد توصل إلى أن عليه أن يغادر القصر، حيث باتت القوات المهاجمة

تحيط به. وهو وضع كان واضحاً نهاية سنة 2012، حيث تحلق حول دمشق أكثر من ستين ألف مقال، وجرت محاولات اقتحام للمدينة. وأضاف محمدى أن همدانى قال للأسد "لا تقلق.. إذا سمحت بتوزيع عشرة آلاف قطعة سلاح بين الشعب وتعبيئة الناس في مجموعات سيزول الخطر". وحسب محمدى، "عبا الجنرال همدانى 80 ألفاً من القوات السورية، ودخل حزب الله ساحة الحرب، وتم تعزيز الجيش". ويفاخر محمدى بالقول إن الجيش السوري بات قوياً، وأسقط مقاتلة للكيان الصهيوني". وهذا يوضح أن النظام كان على وشك التغيير حينها، وأنه كان يمكن أن يحدث تحول من داخل السلطة، يسمح بتحقيق مطالب طرحتها الثورة .

ولكن قبل تناول هذه المسألة، لا بدّ من تقدير الوضع فيما لو كان بشار الأسد قد رحل حينها، واستلم السلطة نائبه الأول، فاروق الشرع، في إطار حل سياسي يحقق الحريات والديمقراطية، وبعض مطالب الشعب. بالتأكيد، كانت ستتحقق ثلاثة مسائل جوهرية: الأولى، تحول من داخل النظام يحافظ على موقع "الممانعة"، حيث لم تكن سياسة الشرع لتخالف من هذه الزاوية عن سياسة بشار الأسد. والثانية، تحقيق بعض مطالب الشعب، الأمر الذي يسمح بالقول إن الثورة حققت هدفها، وإن كان ذلك يشابه ما حدث في تونس ومصر خصوصاً، حيث أُزيح الرئيس وبقي النظام. والثالث، تجنيب سوريا كل القتل والدمار الذي حدث في ما بعد، والذي كان لإيران دور كبير فيه. حينها لم يكن الصراع قد تفاقم إلى الحدة التي نتجت عن تدخل إيران وأدواتها، وإدخال مجموعات أصولية، ولا كان الشعب قد اندفع لحمل السلاح بالشكل الذي تلا ذلك نتيجة وحشية النظام .

حينها، أشرت إلى المُسَأَلَتَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، ونبهت من خطر العجز عن تحقيق تحول في النظام، فقد نبهت كل الخائفين على تغيير سياسة النظام الخارجية من أن الوضع لا يسمح سوى للتغيير من داخل السلطة، وهذا يعني استمرار السياسة الخارجية نفسها، وأن التغيير سيكون في السياسات الداخلية فقط، حيث كان لا بدّ من تحقيق مطالب طرحها الشعب. طبعاً جرى تهميش فاروق الشرع، وجرى قتل عدد من كبار الضباط الذين كانوا أساسيين في بنائه. وضاعت الفرصة التي كانت تسمح بتحقيق تحول ديمقراطي. وإن كان هذا التحول لا يحقق كل مطالب الشعب، ولا يُحدث التغيير الجذري الضروري لنهاية سوريا. بمعنى أن النظام كان قد وصل حينها إلى حافة "الاستسلام"، وأن جزءاً منه أراد أن يطرح حلاً "وسطاً"، بحيث يحقق بعض مطالب الشعب، من دون أن يُحدث تغييراً كبيراً في بنية النظام. هذا ما كان ممكناً فقط، أي أن التغيير الجذري للنظام لم يكن وارداً على الإطلاق، بالضبط نتيجة عفوية الثورة، بغياب الأحزاب التي تعرف ماذا تطرح، وكيف تقود الثورة إلى الانتصار. وقد أشرت تجربتا تونس ومصر إلى حدود ما يمكن أن تحققه الثورات، وهذا كان يطاول سوريا التي لم تكن تملك أحزاباً تعرف ماذا تريد، وكيف تخوض الصراع ضد النظام. بل كان جلّ حلمها هو "إصلاح" النظام، أو تدميره بتدخل خارجي. لكن هذه الإمكانيات التي ظهرت بوادر لها نهاية سنة 2012 كانت لإيران قد سحقتها. ويؤكد تصريح عضو مجمع مصلحة النظام في إيران، علي آغا محمدى، هذا الأمر، حيث يؤكّد أنه في اللحظة التي بات هناك داخل النظام مَنْ يمكن أن يُحدث تغييراً يحقق بعض مطالب الشعب، تدخلت إيران لكي تمنع ذلك، وتدعيم استمرار الصراع العسكري ضد الثورة، على أمل سحقها، وتكريس سيطرة بشار الأسد، وأيضاً سيطرتها على سوريا. كان هذا الأمر مخفياً حينها، لكنه كان في صلب سياسة إيران. وهو ما عبر عنه أكثر من مسؤول إيراني أكد على السيطرة على أربع عواصم عربية، منها دمشق طبعاً .

لهذا، يتحمل النظام في إيران جزءاً كبيراً مما جرى في سوريا، نتيجة منعه لتحولٍ ممكِّن من "داخل النظام"، هو الشكل

الوحيد الممكن في إطار مجمل الصراع القائم، وموازين القوى التي كان غياب قوى معارضة حقيقة يجعلها لا تسمح بتغيير جذري للنظام، ودفعه إلى طريق لا يقود سورية إلى الخراب والدمار والقتل والتشريد، وخصوصاً أن تدخل إيران رافقه إدخال تنظيم القاعدة، بدءاً من الإخراج من السجون إلى الإرسال من العراق، بحيث باتت كل الدول توظّف في هذا المسار. حينها، لم يكن حجم الفصائل المسلحة كبيراً، ولا كان السلاح تحت سيطرة لا "الجهاديين" ولا "السلفيين"، وكان يمكن قبر كل هؤلاء، لكن طموحات إيران كانت في أن تسيطر على سورية، لهذا أخذت ترسل المليشيات، من حزب الله إلى كل المليشيات العراقية، إلى الحرس الثوري الإيراني وفيلق القدس، وأيضاً الأفغان والباكستانيين، وأخذت تحكم بالصراع على الأرض، من خلال سيطرتها على الجيش المتبقى. ومن ثم باتت تقرّر على المستوى السياسي، وتعزز من سيطرتها على سورية. ولم يكن في هم إيران أن تتدمر سورية، أو أن يتشرّد نصف شعبها. كان يهمها السيطرة عليها. فهي في إطار ميلها إلى أن تصبح قوة إقليمية مهيمنة، سعت إلى أن تسيطر على البلدان العربية في المشرق، لثبت قدرتها، ولكي تساوم عليها إذا اضطررت إلى ذلك. وهي تدخلت هنا بحجة الصراع مع الدولة الصهيونية، وحماية خط إمداد حزب الله، على الرغم من أنها قلبت دور حزب الله من قتال الدولة الصهيونية إلى المشاركة في مشاريعها للسيطرة في سورية والعراق واليمن .

إذن، باتت تطورات الصراع في سوريا منذ سنة 2013 مرتبطة بتطورات إيران، ولهذا ردت دول أخرى على ذلك، منها السعودية وتركيا وقطر، بحيث تحول الصراع إلى صراع إقليمي. وفي هذا، خسرت إيران، حيث ظهر واضحًا أواسط سنة 2015 أن قواها في سوريا، وقوى النظام الباقية، تتهاوى أمام تقدم جبهة الفتح (ضمت جبهة النصرة وأحرار الشام ومجموعات أخرى أصغر) التي كانت التعبير عن تحالف سعودي قطري تركي. فقد انهارت جبهات في الشمال الغربي وفي الوسط، حيث جرت السيطرة على إدلب وجسر الشغور، وبات واضحًا التغيير الكبير في ميزان القوى لغير مصلحة إيران والنظام (مع أن الدول الداعمة كانت تفرض عدم المساس بالساحل السوري، ولا دخول دمشق، بالضبط لأنها كانت تناور في ما تحقق من أجل الضغط على روسيا لتحقيق حلٍّ ما). الأمر الذي جعل قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني، قاسم سليماني، حينها، يهرب إلى موسكو مستنجداً. طبعاً، كما أشرت حينها، لم يكن هدف جبهة الفتح إسقاط النظام، حيث وضع لها فيتو في دخول دمشق، ودخول الساحل السوري، بل هدف إلى الضغط على روسيا لكي تتحقق الحل السياسي. لكن روسيا، التي كان يبدو أنها تنتظر فرصة ما، استغلت الأمر بكل "رحابة صدر"، فتدخلت لكي تحتل سوريا، وتفرض سيطرتها بعد أن كانت إيران قد همّشت دورها خلال سنوات 2013 و2014 إلى منتصف 2015. وكما ظهر، كان لها منظور عالمي، كانت سوريا هي التمثيل الفعلي له. لقد أرادت السيطرة، وفرض سلطوتها، وأيضاً تخويف العالم من قدراتها العسكرية لكي تفرض سطوة عالمية يجعلها قوة قائدة في النظام الرأسمالي.

بالناتي، خسرت إيران اللعبة، فلم تستطع أن تحمي النظام، وهذا هي تصريح لأن روسيا سيطرت على سوريا، واستحوذت على إعادة الإعمار، فقد لمّح وزير الخارجية الإيراني، محمد جواد ظريف، إلى عدم رضى طهران عن استحواذ روسيا على مشاريع واسعة لإعادة الإعمار في سوريا، معتبراً أنه لا توجد حاجة لكي يكون البلدان متنافسين. وجاء ذلك في تصريحات وزير الخارجية في مقابلة تلفزيونية مع القناة الثانية، ونقلتها وكالة إرنا الإيرانية. وقال إن "هناك فرصاً واسعة لإعادة الإعمار في سوريا"، معتبراً أن "حضور روسيا في عملية إعادة الإعمار في سوريا لا يعني عدم حضور إيران". وأضاف ظريف أن في وسع إيران وروسيا أن "تماماً إداهما الأخرى في عملية إعادة الإعمار في سوريا. ولا حاجة لأن تكون متنافسين، الفرص متاحة لكل الدول". ولقد شنت صحف إيرانية هجوماً على يشار الأسد نتيجة ذلك، حيث كانت صحيفة قانون الإيرانية قد

هاجمت الأسد، ووصفته بـ"أنه بلا مبادئ، وناكر للجميل بسبب اتفاقه مع الروس بشأن تسليم ملف إعادة إعمار سوريا للروس بدلاً من إيران". وكتبت الصحيفة في مقال يعنوان "لا حصة لإيران في بازار الشام"، إن "الأسد يريد تقليم أظافر إيران في سوريا بعد هزيمة تنظيم الدولة والدخول في مرحلة جديدة". واعتبرت الصحيفة أن من حق إيران أن تستولي، ولو بالقوة، على حصتها من سوريا، قائلة: "الحق يؤخذ، وعلى الرغم من محاولة إخفاء الحقائق حول فقداننا حصتنا بسوريا من بعضهم في إيران، فإن شعبنا يعلم ويعي ما يحدث لنا في سوريا". بمعنى أن إيران ستخرج "من المولد بلا حمض"، حيث استحوذت روسيا على كل شيء، وستفرض حلاً يخرج إيران من سوريا، لمنعها من الحصول على أي حصة، ولتطمين حليفتها الدولة الصهيونية. ولهذا هي تسمح للدولة الصهيونية بتصفّح موقع إيران وحزب الله في سوريا .

لهذا بحث آخر، لكن لا بدّ من القول إن إيران، بدل أن تكسب بالسماح لبشار الأسد بالرحيل، بحيث يبقى النظام في صفها، فقد ساهمت في تدمير سوريا من دون أن تحقق أي مكسب. على العكس، سنجدها قد خسرت كل وجود لها في سوريا ولبنان، وسيكون حزب الله في وضع حرج جداً. فروسيا سوف تسعى إلى عقد معااهدة بين النظام الذي ستنتصبه في دمشق والدولة الصهيونية، وسيُفرض ذلك على لبنان. وهي قبل ذلك ستُخرج إيران وأدواتها من سوريا. لقد لعبت إيران بالوضع السوري، لكي توسيّع من سيطرتها، لكنها في هذه اللعبة دمرت سوريا، ولم تحصل على ما أرادت.

المصادر:

العربي الجديد